

قراءات أنثروبولوجية في فكر العلماء المسلمين -ابن خلدون أنموذجا-

د. نصيرة بكوش جامعة تلمسان

أ. زينب دهيلي جامعة ورقلة

الملخص

ما هو جدير بالذكر في هذه الدراسة هو ان مقدمة ابن خلدون قد أثارت ضجة عالمية لما احتوته بين طياتها من فلسفة وتاريخ وسياسة وعلم اجتماع وغيرها من العلوم الأخرى. لذلك راح العلماء والباحثون يغرفون منها وينهلون، لما وجدوا فيها من الأهمية والمنفعة . والدليل على ذلك ترجمتها إلى عدة لغات.

ومن خلال دراسة أعمال ابن خلدون في عدة ملتقيات، توصل الباحثون إلى أنها بذرة لنشأة الانثروبولوجيا ، لأنها كانت الركيزة الأساسية التي بني عليه هذا العلم .. لذلك يمكن القول إن أعمال ابن خلدون تندرج موضوعا ومنهجيا ومضمونا ضمن ما يطلق عليه اليوم الدراسات الانثروبولوجية ولو في صورتها الجنينية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا في هذه الدراسة هو: أين يتجلى الفكر الانثروبولوجي في أعمال ابن خلدون وقبل الإجابة عن هذا التساؤل يجب تحديد بعض المفاهيم.

تعريف الأنثروبولوجيا

هي كلمة مركبة من مقطعين من اللغة اليونانية وهما Antropo وتعني إنسان و logy وتعني علم وبهذا تكون الأنثروبولوجيا علم الإنسان أو المعرفة المنظمة لدى الإنسان. والأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا 1 ونفهم من هذا التعريف أن الأنثروبولوجيا تهتم بالنظرة الكلية الشاملة للإنسان أي بجميع المعرفة بالإنسان من كافة الجوانب ولا يسعنا الزمان، ولا المكان، للتعرض لكل قسم من أقسام الأنثروبولوجيا ولكن سنقتصر فقط على تعريف الأنثروبولوجيا الاجتماعية لأنها تعد محور من محاور دراستنا

تعريف الأنثروبولوجيا الاجتماعية

توافق المدرسة الأمريكية للأنثروبولوجيا على اعتبار الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرع من الأنثروبولوجيا الثقافية على أساس أنه الفرع الذي تخصص في دراسة جانب العلاقات الاجتماعية من الثقافة أما المدرسة الإنجليزية فإنها تنظر للأنثروبولوجيا الاجتماعية كقسم مستقل للأنثروبولوجيا عامة، وترى أن كل من الأنثروبولوجيا الثقافية و الاجتماعية فرع مستقل من الأنثروبولوجيا. ويهتم هذا الفرع بتحليل البناء الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية وخاصة المجتمعات شبه البدائية التي يظهر فيها بوضوح تكامل ووحدة البناء الاجتماعي . وهكذا يتركز اهتمام هذا الفرع بالقطاع الاجتماعي للحضارة ويتميز بالدراسة العميقة التفصيلية للبناء الاجتماعي وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية. 2

تعريف ابن خلدون

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون. وينتهي أصله إلى العرب اليمانية في بلاد حضرموت. ويذكر ابن حزم أن جد مؤرخنا ابن خلدون الذي دخل الأندلس من المشرق وهو خالد بن عثمان بن هانئ ينتهي نسبه إلى وائل بن حجر اليماني الحضرمي. ولد عبد الرحمن بن خلدون في تونس (في غرة رمضان سنة 732هـ) الموافق السابع والعشرين من نيسان (مايو سنة 1322م) وفي تونس كانت نشأته ودراسته الأولى، محاطا برعاية أبيه الذي كان يرى فيه ملامح النجاة والذكاء. ولما كان والده من البارزين في العلوم الدينية واللغوية، فقد كان من البديهي أن تكون هذه العلوم محور دروس هذه المرحلة من حياته.3

و بعد تقديم هذه التعريفات يجدر بنا الآن أن نبين علاقة ابن خلدون بالانثروبولوجيا عامة والانثروبولوجيا الاجتماعية خاصة

ابن خلدون والانثروبولوجيا:

ترجع بدايات الانثروبولوجيا الاجتماعية وتمتد جذورها التاريخية إلى أزمنة بعيدة وهي ترتبط بتاريخ التفكير الاجتماعي وتطور الأسس النظرية والمنهجية في دراسة المجتمعات الإنسانية. ويعتبر عبد الرحمان بن خلدون (أواخر القرن الرابع عشر 732هـ-1406م) المفكر العربي الإسلامي في مقدمته الشهيرة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر-. هو رائد علم الاجتماع، ومن أوائل الذين قاموا بوضع قواعد منهجية لدراسة المجتمع الإنساني، وقام بتطبيقها على الحقائق والروايات والأخبار أو المعطيات التي يجمعها الباحث، عن مختلف نواحي الاجتماع الإنساني، بحيث لا يكتفي بجمع الوفير منها وإلا تعرض لأخطاء تهدم بحثه من أساسه، بل إن مقدمة ابن خلدون تعد عملا أصيلا في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال إفريقيا، وفي عقد

المقارنات بين العادات والتقاليد والقيم والعلاقات والنظم الاجتماعية السائدة وذلك في ثلاثة أنماط معيشية هي: البداوة والفلاحة والحضارة في ضوء النظر إلى سلوكيات الناس في سياق حياتهم وتقاليدهم وقيمهم، وليس في إطار تقويمي يعتمد على ثقافة الباحث.4

وتعد مقدمة ابن خلدون من الكتب التي أثرت تأثيراً عظيماً في حضارة الغرب ومفكره. وقد بلغ إعجاب علماء أوروبا بهذا السفر العظيم حداً حمل العلامة "كاترمير" الفرنسي، على نقله إلى الفرنسية، استناداً إلى نسخة محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس. كما ترجمت إلى لغات شتى كالانجليزية والإيطالية والألمانية والتركية.5

ويرى بعض الأنثروبولوجيين البريطانيين أن مقدمة ابن خلدون تحتوي على بعض موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية سواء ما يتعلق بالعلاقة بين البيئة الجغرافية وبين السكان والظواهر الاجتماعية واثراً البيئة في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية في ضوء منظور جغرافي تاريخي مقارنة بالإضافة إلى بحثه عن مراحل تطور الحضارة الإنسانية وما اسماء بدورة الحضارات على غرار دورة الحياة الفردية من الميلاد حتى الممات.6

كما تناول ابن خلدون مبدأ العصبية والتي يعني بها العلاقة بين ذوي القرى، أي الرابطة الدموية بين أفراد جماعة ما وهي تتبدى باجلى مظاهرها، كونها لحمية الاجتماع في الأصل، في طور البداوة في حين إن تراخيها، عند بلوغ أعلى أطوار التحضر، يبشر بالانحطاط الذي لا مفر منه.7

وللعصبية دور فعال في حفظ المجتمع البدوي من الاضمحلال، فهي تساعد البدو على سكنى البوادي والقفار النائية، وتضمن لأبناء القبيلة المؤازرة وتساعدهم على حفظ الأنساب، صريحة ونقية.8 وعند الحديث عن مبدأ العصبية (العلاقات القرابية) وأهميته في فهم المجتمعات القبلية قد انتقلت هذه الفكرة فيما بعد إلى روبرتسون سميث ثم إيقانز بريشارد.9

وقد كان ابن خلدون يميل إلى تفسير الظواهر الاجتماعية بظواهر اجتماعية أخرى ،وقد أخذ إميل دور كايم بهذه القاعدة المنهجية في كتابة قواعد المنهج في علم الاجتماع أواخر القرن التاسع عشر. 10

إضافة إلى ما توصل إليه أيضا ابن خلدون من مجموعة من القوانين من خلال تحليله الاجتماعي وتفسيره لظواهر العمران ومن خلال قراءة المقدمة يمكن وضع ثلاثة مفاهيم أساسية تؤكد ذلك وهي أن ابن خلدون في مقدمته تبين ان المجتمعات البشرية تسير وتمضي وفق قوانين محددة وهذه القوانين تسمح بقدر من التنبؤ بالمستقبل إذا ما درست وفقحت جيدا، وان هذا العلم (علم العمران كما اسماءه) لا يتأثر بالحوادث الفردية وإنما يتأثر بالمجتمعات ككل . 11

ويرى الدكتور حمداوي محمد من خلال مقاله "القراءة والسلطة عند ابن خلدون" ان ابن خلدون لم يكتف بوصف الحياة الاجتماعية وصفا تجريبييا ،بل حاول ربط وصفه بالمعالم البارزة في الطبيعة والإنسان. فإذا كان هذه الوجهة العامة التي تنتظم فكر ابن خلدون ،فان ذلك قرينة أخرى على أن علم العمران البشري عبارة عن انثروبولوجيا.

خلاصة القول يمكننا اعتبار ابن خلدون الأب المؤسس لعلم الاجتماع والانثروبولوجيا الذي استفاد منه مونتسكيو واوكست كونت واميل دور كايم وغيرهم من البريطانيين الذين اقتبسوا الكثير من آرائه ونظرياته. لقد فتح لهم الباب ومهد لهم الطريق للتطلع على علم الاجتماع والسياسة والتاريخ والفلسفة وغيرها من العلوم..ولذلك نستطيع أن نعد ابن خلدون رائدا من رواد الانثروبولوجيا الاجتماعية.

قائمة المراجع:

1. محمد الخطيب-الاثنولوجيا-دراسة عن المجتمعات البدائية -دمشق-ط1 ص13

2. عاطف وصفي -الانثربولوجيا الاجتماعية-دارالنهضة للطباعة والنشر -بيروت-1981ص16
3. عمر فاروق الطباع- ابن خلدون -مؤسسة المعارف للطباعة والنشر-بيروت لبنان-1997ص31
4. مصطفى عمر حمادة-مدخل إلى الانثربولوجيا-دار المعرفة الجامعية-2013 ص131
5. عمر فاروق الطباع -ابن خلدون -مؤسسة المعارف بيروت-1997-ص64
6. مصطفى عمر حمادة-المرجع السابق- ص132
7. جورج لاييكا-السياسة والدين عند ابن خلدون-تعريب موسى وهبة وشوقي الدويهي-الفارابي-1980-ص91
8. عمر فاروق الطباع -المرجع السابق ص79
9. مصطفى عمر حمادة -المرجع السابق -ص132) المرجع نفسه-ص132
10. ويكيبيديا الموسوعة الحرة -مقدمة ابن خلدون